وكان البيت أخي السابع

المُغيرة الهويدي

شعر

المُغيرة الهويدي

وكان البيت أخي السابع

شعر

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

الإنسانُ كلامٌ مكتوب

حقيقته في ماضيه

فيما كان وانتهى..

الإنسانُ كلمةٌ بحجم ذاكرته!

ضحكة امرأة.. نباح كلب

هو الحبُّ قاتلنا الطليق!

ينصب لنا الفِخاخ أبواباً مُغَلّقة

من كلّ قبيلةٍ كاهنٌ يترصّدنا

فمن منّا ينام في فراش الآخر

ومن يهاجر؟

وحيدان في تجهّم البلاد

البلادِ التي تكره نفسها..

قالوا:

-كانت جميلةً ومشتهاة، لكنّها لم تعرفِ الحبَّ يوماً،

أو ربّما نجتْ!

وكنّا نحاول تعريفَ الحبِّ كي لا نقعَ في فخّ الغواية..

قلتُ:

-الحبُّ امرأةٌ تضحك دائماً،

وحين تعبر الشارعَ يتصبّب عرقُ الرجال!

قلتِ:

-الحبُّ لزجٌ مثل لعاب الكلاب الضّالة!

لكنّنا ودون أن نثيرَ ارتياب البلاد

مضينا جهةَ الهروب..

فكانَ الحب!

وكان خلف الباب من كلّ قبيلةٍ كاهنٌ يترصّدنا،

يسترقون السمع:

- ضحكة امرأة؟

- نباح كلب؟

هو الحبُّ قاتلنا الطليق..

وما زلنا وراء الباب

فراشٌ دافئ وحقائبُ مهاجرة!

لأنّ الغابةَ بلا أبواب

الأسماء تنمو أيضاً

لها ما للأشجار من ضوءٍ وماءٍ وحب..

اسمكِ مثلاً،

كلما ناديتكِ كبرتْ غابة

وأزهرتْ حديقة!

لأنّنا نعرف أن الحبَّ ينمو مثل الغابات، اخترنا السفوحَ وتركنا القمم لقناعات عشاقٍ آخرين..

هكذا، كنا نقضي الوقت، نزرع أشجاراً لنربّيَ رائحة الصنوبر، تلك الرائحة التي تشبه عَدْو خيولٍ بريّةٍ في سهولٍ فراتيّة، هي ذاتُها التي تنضحُ كالعرق من جسدي، أنا الذي لا يملك من الحياة ما يغري به امرأةً سوى فكرته عن الرائحة!

وكنّا إذا تشاجرنا تولّتِ الغابة أمرَ نفسها، ورحنا نجمع الأكوازَ لشجاراتٍ تدور في رأسينا، وطفقنا نخصفُ من أغصانها أوراقاً، نصنع منها أغطيةً للوحدة التي تجمع عاشقَين غاضبَين..

وعندما لا نجد ما يشبع حاجتَنا إلى زراعة المزيد من الأشجار،

نلعق اللِّحاء لنسكت جوعَ الرائحة..

ما بيننا غابةٌ ولِدتْ مصادفةً في مقهى

وعندما لم تتسع هذي البلاد لنا، حملنا حقائبَنا ومضينا إلى

السفح..

وأخذنا معنا مايكفي لنعيشَ كي نحب؛ كفافَ يومنا ممّا يلهث وراءه العالم، العالم الذي لم تؤذه كلُّ هذه الحروب وآذته ورقة صنوبر طرفَتْ عينه!

وكقاتلٍ محترف..

حمل فرائسه

ألقى عقب سيجارته

ومضى..

ولأنّ الغابةَ بلا أبواب

صار من السهل علينا ألّا نهدرَ الوقت في الانتظار..

ولأنّني الرجلُ الذي يقبل بالخسائر

لم أكترثْ

وعدتُ إليك..

ولأنّك امرأةٌ لا تعنيها انتصاراتُ العالم

مسكتِ يدي ومضينا إلى سفحٍ آخر

وفي حقائبنا رائحةُ غابةٍ تحترق!

قبلةٌ مضاءة، بلاد مطفأة

- دعينا نتبادل الأدوار

تأخذين وقوفي الطويلَ عند عمود الإنارة

وآخذ عدم مجيئك!

- التقينا أوّل مرّةٍ تحت عمود الإنارة

كان مكاناً مناسباً

أن نقفَ تحت الضوء الأصفر

أنتِ تحملين كرتونة صغيرة

وأنا أحمل علاقةَ مفاتيح وعلبةَ سجائر وهاتفي المحمول

لم نتصافح أكفّنا

كانت مزدحمةً بتوقعاتٍ مسبّقةٍ

يبدو هذا طبيعياً عندما لا نخطّط لمصافحة!

- هل يكون النهار ليلاً

والليل نهاراً صيفياً لعمود إنارة؟

وإلّا كيف نفسّر وجودَ قبعةٍ من عثٍّ وفراشاتٍ على رأسه؟

هل نكون أنا وأنتِ قدميه المتقابلتين؟

- مرّة حلمتُ بالشارع يمشي

راح يركض هارباً من أشباح خرجت من الدوائر الرسمية

كلّ شيءٍ كان يهرب إلى الأمام..

وحده عمودُ الإنارة هذا كان يتسلّق الحائطَ إلى نافذتك!

- هل يعني لك عمودُ الإنارة شيئاً؟

أنا يذكّرني بطفولتي

عندما كانت تنقطع الكهرباء عن بيوت الحي

ويبقى الشارع مضاءً لموكب المحافظ!

- أعمدة الإنارة مثل نساء حارتنا:

سعاد وفيروز وأم مهيار وفريدة

كلهنّ يعرفنَ الحكاية

ومع ذلك فلا مانعَ من إعادتها أو سماعها

المرأة التي رأت ماحدث تخبر الثانية..

على بعد عشرين امرأة

تبدو قصّتُنا أكبرَ من قصةٍ اثنين التقيا تحت عمود الإنارة!

- لأنّنا لم نتصافحْ

لأنّ أكفّنا كانت تقبضُ على أشياء تافهة

ولأنّ الحربَ أصابتِ البلاد بعطبٍ

وأخذتْ وقوفَنا الأخيرَ هناك

لأنّ خللاً جعل الضوءَ ينطفئ ويشتعل:

- تفضلين القبلة مضاءةً أم مطفأة؟

تطرق الباب،

تفتح لك الذاكرة

امرأة تركْتَها تنتظركَ ساعاتٍ ولم تأتِ...

امرأة رسمتْ لك بيتاً ودعتك إليه، ضاجعْتها، ثمّ قفزتَ من النافذة

امرأة أعدّتْ لك طعاماً، أولَمَتْ لك قلبها، وبعد أن شبعت، خنتها مع الطاولة

امرأة عقدتْ دربَك بتمائم المصادفات، ابتسمْتَ في وجهها، ومضيتَ إلى موعدٍ في آخر الدرب.

امرأة حفظتْ قصائدك لتغريَكَ بها

امرأة تجاهلتْ ما تكتب، استهزأتْ بكَ

امرأة تخاف الله فيك

امرأة تحبّ الله لأجلك

امرأة آمنتْ بجسدك

امرأة كأمّكَ

امرأة أكبر من أمّك

امرأة تسمع ولا تتكلم

امرأة لا تصغي

امرأة كالبلد

امرأة كالغربة

امرأة كطريق العودة من دمشق إلى الرّقة..

امرأة من طينٍ

امرأة من شهوة

امرأة من ضحكٍ

امرأة من سَمرٍ

امرأة كبخار الشاي

امرأة من قهوة..

امرأة في انتهاء الوقت

تأتي في آخر السطر لتنهيَ وهمكَ..

تعود إلى امرأةٍ رسمت لك بيتاً

تطرق الباب

تفتح لك الذاكرة

تضاجع غيابها..

ثمّ تقفزُ من النافذة!

خطوات

وجهك العشبُ الذي ينمو في صدوع ذاكرتي
وحده من يلجِم الريحَ حين تتسربُ إلى ممرات القلب
هناك حيث يركض طفلٌ أمام طائرته الورقية..
لا شيء سوى أثرِ خطواته
تهرول إلى الوراء..
خطواتِه المطبوعةِ على غبار غيابك!

إعلان الخطيئة

هذا قلبي أردّه إلي..

أشدّ أوردته بالأخضر الذابل

أحصّنه بالأدعية والدوائر المغلقة

وفي كلّ طريقٍ إليه أحفر خندقاً

وأدعو على غيابكِ بالعمى!

الحبُّ إعلان الخطيئة، التبجّحُ بها، الاعتراف بأنّ الحياةَ أفضلُ بما تيسّر من ذنوبٍ، وبما تراكم من أدعيةٍ ليست معنيّة بالسماء تماماً، كأن تدعو على انتظاركَ بالموتِ، أو تدعو على غيابها بالعمى..

ولا شيء يأخذك تماماً وأنت تقف في زاوية انتظارها، تكتب سطراً في الهواء ولا تحرّك إصبعك، وتمحوه وأنت تنفثُ دخانَ سيجارتك.

ثمّ إذا تأخرَتْ، أعلنْتَ حبّك للقطط الّتي تسير على الرّصيف المقابل غير آبهةٍ بكَ أنتَ تحديداً، وتمنّيت أنْ تكونا قطّين هاربين من لعنة المقاهي وقداسة الشوارع الرّصينة إلى مداخل العمارات الشتائيّة..

ستقبّل يدها.. نعم يدها

وستجثو على ركبتيك معلناً لها شغفَكَ باقتراف الخطايا،

ورغبتكَ في الجهر بمعصيتكَ أمام الملأ!

ستقبّل يدها.. نعم يدها

وستخرجان إلى الشارع عندما ينزل صوتٌ فاحشُ الاستقامة درجَ العمارة!

الحبّ إعلان الخطيئة، التبجّحُ بها، ومن دون أن تكترث لنظرات المارّة ستمدّ يدكَ تطوّقُ خصرها، ولا تفكّر كثيراً في إحصاء ذنوبكَ، تقرّبها إليكَ، وتمشيان في المشهد المقدّس وعلى شفتيكما ثرثرةٌ عاصية..

تسأل نفسكَ:

- ماذا يفعل الحبُّ في بلاد العاطلين عن الحياة؟

ولا تنتظر إجابة!

مشغولٌ بها، وبرغبتك في الإساءة إلى المقدّس في الشوارع التي تحفظ أسماء أبواب الجنّة، وتعبسُ كلّما مرّ سهواً بها عاشقان منتشيان بخطيئتهما..

مشغولٌ برغبتكَ في فهم المدينة الّتي تهبكَ جداراً لتسندَ ظهرك إذا ما كان الفراقُ المر، وتتجاهل شغفكَ بالحياة سعيداً، دون أن تقضّ سعادتُك مضجعَ الموت فيها!

مشغولٌ بها، بحاجتكَ إلى الحياة كما تريد، دون أن يقتلكَ سوءُ تقدير الوقت بين أن تصلَ إلى حضنها عاصياً، أو تبقى على زاوية انتظارها، فتصيبكَ الشوارع بنعمة الموت شهيداً من فرط الاحتضار في هذي البلاد..

ودون أن تكون معنياً بما تراكمَ من أدعيةٍ عند باب السماء،

ترفع يديكَ

نعم يديكَ..

وتدعو على غيابها بالعمى!

أقنعة

خذيني بأقنعتي كلِّها
أحبّيني بالخفة التي أنزع فيها واحداً وأضع آخر
بالسهولة التي تجعلني أبدو عادياً
وممكناً...

لا تبحثي عن وجهي
نسيتهُ!

غيابٌ واحد

بعصا واحدةٍ
أستطيع كسرَ أجنحة العصافير حين تطير في حضوركِ

بقدمٍ واحدةٍ
أستطيع دهسَ حقول الزهور التي زرعتها للقائك

بصرخةٍ واحدةٍ
أستطيع تبديدَ الهمهمات اللذيذة التي جمّعتها لك

بدمعةٍ واحدةٍ
تسقط آخر الليل
تنمو غابةٌ مظلمةٌ
غابةٌ مثقلةٌ بالخوف والوحدة
يستطيع غيابُك أن يهزَّها بيدٍ واحدة!

الغياب جهتك الأخيرة

لا أنام تماماً في غيابكِ

لكنني أبداً أحاول

مثل طريقٍ منهكٍ آخر الليل

تعبره الشاحنات والكلاب الضالة

كَمَن يبحث عن شهيق

أفتّش عنكِ في كومة من أحاديث مُهمَلة..

كان حديثُنا الأخيرُ أحدها

أخرجْتُه، لـمَّعتُه، أعدْتُ له بريق المكان

صوتكِ حين ارتفع قليلاً:

- كان عليكَ أن تحبَّني أكثر من ذاكرتك!

ووجدتُ أيضاً نداءً رطباً لكِ

وقصيدةَ شِعر بصوتكِ

وسؤالك لعابرٍ عن إحداثيات ضياعنا

عندما ولسببٍ اسمه الرغبة في التسكع

تهنا..

لم يكن المكانُ بعيداً عنكِ

فيما كنت دوماً أترك مَهمّة إيجاده لكِ

المكانُ الذي بات جزءاً من الغياب

وجزءاً من المشكلة!

- البلادُ عطبٌ في ذاكرة الرجال!

وكنتُ إذا تقابلنا

تركتُ مسافةً بيننا، كرسيّاً مثلاً!

فيما كنت تختصرينها عندما تضعين حقيبةَ يدكِ عليه،

- الفراغُ أسلاكٌ شائكة!

كنتِ تحتلين المكان

تستبيحين عدم فهمي لنفسي

تعلّقين معطفكِ عند الباب

وتومئين للوقت بوحدتي..

- كنتَ عاشقاً ووحيداً في الوقت ذاتِه!

كَمَن يبحث عن شهيقٍ في كومة أحاديثنا

كَمَن يعرف أنّ كلامَه لم يكن مهماً

وأنّ الحبَّ يقف دوماً خارج دائرة الكلام..

- لكنّ الحبّ وجهٌ آخر للغة!

ووجدت أيضاً يدكِ تلوّح بالحديثِ الأخير..

عندما كنت أركب الحافلة

تنهيدتي على بلورها..

الغبش الذي استحال قلباً متآكلاً

يدكِ التي ظلّت تلوّح لي

تتحدث

تفضُّل اشتباكَ الصّحو بيننا:

- الغيابُ جهتكَ الأخيرة

الثقوب الّتي يسيل منها الحب

نايات في القلب

والذكرى ريحٌ تعول في دمي

رحيلكِ يثقب كلّ شيء

الستائرَ المسدلةَ في غرفةٍ مصابةٍ بالظلال والخدر

الكؤوسَ المثقوبة

الماءَ الأعمى

بقايا الطعام

الكرسيّ الوحيدَ لرجلٍ وامرأةٍ وقُبلة

الكلماتِ المحفورةَ فوق السرير

قصاصاتِ الملاحق الثقافية

الأغنياتِ المملّحةَ والمقدّدة..

يثقب اللحظاتِ منتهيةَ الصلاحية

مشبكَ شعركِ الذي نسيته

ملابسَنا..

الوسادةَ الوحيدة

صورتكِ..

صورتنا!

كلّ شيءٍ مثقوبٌ حتى فكرتنا عن الحب

هواجسنا في الانتظار

عمّا يمكن أن يتغيَّر عندما تعودين

ما يمكن أن يبقى حين يصيبنا الملل

دون أن يكونَ هنالك ما يلغي حاجتَنا إلى الوحدة.

وكما يحدث في النهاية

عندما لا أعرف طريقةً لتجاهلكِ سوى التوغل فيكِ

نسيانكِ من فرط التحديق بثقوب رحيلك..

وعندما أهدر الوقت في إحصائها وتمييزها:

الثقوبُ التي يتسلل منها الضوءُ الحارقُ إلى ما بقي وراءنا..

والثقوبُ التي يسيل منها الحبّ إلى جذع شجرةٍ ميّتة!

امرأةٌ من حب،
رجلٌ من هزيمة

كلّ يومٍ تعبرني الحرب
تزرع بدلاً من أغنياتك ألغاماً
تجعل أصابعي «ديناميتاً» وقنابل
وتصنع من شعري مشانق!
كلّ يوم تستبيح الحرب شبراً من خارطة القلب
تدنّسه بالخوف والرايات وفوّهات البنادق
تنصب رشاشاً فوق كتفي
وكمائن في صدري..
كلّ يومٍ أعود إليكِ مثقلاً بالموت
مهزوماً أو منتصراً..
بضحايا وقتلةٍ يتسللون عبر زفيري إلى حائط مطبخك
يلعقون رائحة طعامكِ
ملاعقك صحونك
علب البهارات الملونة كأفراح صغيرة،
انشغالكِ بإعداد الطعام لقائمةٍ طويلةٍ من الأخبار العاجلة!
كلّ يوم تغسلين آثار الدماء على ثيابي
تكنسين شظايا الزجاج في عروقي
تشعلين في مسامي حرائقَ لذيذة

بضحكةٍ تطغى على صوت انفجار لغمٍ
أو قذيفةٍ ضالةٍ في حَوْش صدري
بثرثرةٍ عن ثوبٍ مفخخٍ بالبنفسج
بخصرٍ يقترح الياسمينَ حزاماً ناسفاً..
ونهدٍ يتكوّر في يدي
يصبح أرجوحةً لصغارٍ خرجوا من الخوف
إلى فرجةٍ ممكنة،
ثمّ ينفرون من انتهاك الهدنة
إلى شامةٍ تحت انتشائه!
كل يومٍ تحدثين جارتَكِ عن مهمتِك الأصعب:
«إزالة آثار الحرب»
عن تفاؤلكِ بعودتي سالماً،
وهذا يكفي
عن آثارٍ سيمحوها الحب
وجراحٍ ستتعافى بالأغنيات
عن قتلةٍ وضحايا يتسللون عبر زفيري
إلى شهيق النافذة..
عن رجلٍ سيعود من الحرب
سيعود مهزوماً إليك!

موتٌ مزمن،
ضحكةٌ قصيرة

كلَّ ليلةٍ

أكنس فوارغَ الرصاص في داخلي

أعيد ترتيب البلاد

أمسح الغبار عن وجه حبيبتي

أضع وردةً عند نافذتها

ثمّ أدخل في موتي

أمزج موتي بضحكتكِ الأخيرة

أضيف لازمةَ أغنيّةٍ عالقةٍ على شفتيكِ

أسكب عليها مخاوفي البليدة

ما توفّر من كآبتي الأليفة..

إلى وجهكِ حين يصبح حديقةً خلفيةً لشقةٍ في الطابق السادس

إلى قلقي من عبور النهر كلما نسيت أن أعرِفَني،

ووصلت إليكِ..

أرشّ أوجاعي فوق جُرحٍ صغيرٍ في إبهامك..

تضحكين

وأصرخ..

أعجن تعبي بكتفكِ

يميل رأسكِ قليلاً نحو قلبي

تنبت وردةٌ في شَعر امرأة،

ويحترق نهر على هامش المدينة..

أسكب ذاكرتي الشفوية فوق سريرك

وأدعوكِ إلى الرقص..

تنهضين من نومك

وأنهض من نقصي؛

امرأةً مكتملة

ورجلاً بمربعاتٍ فارغة..

وكما يحدث حين نتعب من الوقت،

نشرب

ثمّ نغني

ثمّ نرقص

نرقص طويلاً

هكذا

حتى تجفَّ مربعاتٌ صنعتها لأرمني

صنعتها من موتي المزمن

وضحكتك القصيرة!

خدوشٌ في وجه الحقيبة

ستترك كلّ شيءٍ وراءك

فراشكَ الدافئ

جسدكَ تحت الماء

فنجانَ قهوتك

يدَها حين ترتفع،

تحرّك الهواءَ بسكّر الأغنيات؛

تدعوكَ لاحتسائها على مهل..

لكنّكَ تخاف من طعنةٍ في ظهر حقيبتك اسمها

«البقاء إلى الأبد»،

أنت ابن المنافي

والدروب

والمحطات الليلية!

كيف تخبرُها بحقيقتكَ عندما تشهر في وجهكِ ابتسامة؟

تردّها بوجهٍ مائل..

بهمهماتٍ مبهمةٍ نكدوشٍ صغيرةٍ في وجه حقيبتك!

كيف تخبرها أنّكَ برّيٌّ وموسميٌّ،

وأنّ حضوركَ المؤقتِ ليس أكثر من ظلّ لوريقات الحرمل؟

فيؤكَ سعادةٌ عابرةٌ

تجفُّ في سموم القيظ

تجفّفكَ..

تتركَ الريح..

كيف تخبرها أنّكَ سترحل

دون أن يكونَ هنالك سببٌ مقنع،

وأنّكَ ستفتقدُ يدَها كلما رأيتَ قريةً آمنة؟

وأنّكَ ستتركُ كلّ شيء

عندما يشدكَ الحنينُ إلى دروب وحدتك..

تترك كل شيءٍ وتمضي

بحقيبةٍ مترهلة

وحياةٍ منذورة ليباس المنافي!

تسهرُ للهواءِ المهيّل

في الصيف،

تنام امرأة على سطح بيتها في «الرقة»

وعندما تحكّ ساقَها بقدمها الأخرى يتحرّك الهواء!

(1)

في الصيف

يهطل المطر إلى الأعلى

ملوّناً بشمس العصر ورائحة التراب والشاي

وصوت فؤاد سالم وهو ينهمر من الحنفيّات

يهطل ليصل إلى ساق امرأة ترفع ثوبها عن الأرض

تَشْكُله بطرف سحابة صيفٍ عابرة!

(2)

نشرب الشاي

بعد أن تفرغ فتاةٌ من غسيل الشمس وتنظيف الهواء

نشرب الشاي عند الفطور

وعندما نصحو من كسل الظهيرة

وفي العرس،

نطبخ الشاي في «چيادين» كبيرة

وفي الحزن أيضاً،

عندما تهدر امرأةٌ جزءاً عظيماً من حزنها في إعداده لنساءٍ

يحرثن وجوههن بالدمع والدماء..

الشاي مثل ثوب «الكودلي» في الرقة

ليس أقل شأناً من باب بغداد أو سور المدينة

ليس أقل من دمشق أو الموصل في نظر أمي..

(3)

أوّل مرةٍ تلذّذت بالشاي المهيّل

كانت بعد أن تسلّقت سور حوشهم

وألقيت ظلي على النافذة

كانت هذه الطريقة الوحيدة للوصول إلى طفلةٍ من عمري،

كانتِ المحاولةَ الأولى لكتابة قصيدة.

(4)

عندما قالت لي معلمة الإنكليزي: I love you

ارتبكت وهي تشرح فعل الحب؛

لم يحدث أن قال لي أحد إنّه يحبني،

لم يحدث أن كان التعبير عن الحب عادياً ويومياً ومباحاً في جمل العائلة كالشاي

كان دوماً أبعد من اللغة،

وأقرب من أصابعنا وهي تتحسس حروف الفعل على طريقة مِسْ صفاء..

كبرت وأنا لا أعرف كيف أشكر امرأةً تقدّم لي الشاي

من دون أن ترتجف أصابعي!

(5)

-وتر الربابة مصنوع من ذيل «الكحيلة»

يقول رجلٌ يراها وهي تلتفت عائدة إلى الحوش

- بل من شعر ماعز بري يصعد من قلبي إلى رأسي.

يعلّق آخر وهي تردّ الباب وراءها

-وتر الربابة أنثوي بامتياز،

يأخذ رشفةً،

يرفع كأسه لنخب الـ«موليّا» وهي تعبر المسافة بين بابها والرصيف المقابل

-جديلةٌ غُمست بكأس شاي ساخن،

مثل أصوات «الرقاويات»!

(6)

عندما تعبر بدراجة هوائية زقاقاً في الرقة

تستطيع أن ترى عباءة «حَبَرٍ» في كل حوش

معلقةً على حبل الغسيل

وتستطيع أن تراها،

تغلق الحنفية

وتمشي إلى الشاي

(7)

في حوشهم أشجار زيزفون

يحبّ أهل الرقة هذه الشجرة

حبّهم للشاي..

لم أسمع أنّ أحداً منهم يحب أشجار البرتقال أكثر!

(8)

«ردتك تمر ضيف وتسكت اليحچون»

تعضّ فتاةٌ على شفتها

عندما تتذكر عودتك معها من المدرسة..

وأنكَ رحلت ولم تعد عادياً ويومياً ومباحاً كالشاي

«چيك مطر صيف ما بلل اليمشون»

تنهض عند تكرار اللازمة

لتسكب بقية كأسها على جذور الزيزفون!

تصحو امرأةٌ في الليل

تنفض ثوبها النيلي الملتصق بنهديها

تعدّ الشاي لها

وتسهر للهواء المهيّل..

العابرون إلى الغياب

لن يعودوا
ولملمتُ نفسي كما تعصر امرأةٌ ثوبها فوق ركبتيها..
لن يعودوا..
أخذتهم الريح..
وتمايلتْ رؤوسُ الأعشاب التي نمَتْ على جدران قلبي!

* * *

العابرون إلى الغياب
النّاس الذين أعرفهم جيّداً
مضوا إلى الضفّة الأخرى
العابرون في اليومي والهامشي
في مصافحةٍ عجلى وابتسامةٍ مائلة..
في ضوء المحطات الأبيض
في الحقيبة والتذاكر والوثائق الرسميّة المزوّرة!
العابرات في عباءاتِ «الحَبَر»
في «الهباري»
في بخار الشاي من أفواه «الجيادين»
الراحلاتُ من أقصى يسار القلب إلى براري العدم

الجفافُ في وجوههنّ

اليباسُ في خطواتهنّ

القيظ

الهجير

العجاج في اليباب..

البيوتُ التي كانت هنا

صارتْ هناك

الشوارعُ المطفأة هنا

اشتعلتْ بالزحام الفظِّ هناك

الحديثُ الذي انتهى

تعلّق بالشفاه،

ودار..

الأوراق

الرسائل

الكتب

الشجار

العزاء

«الهلاهل»

البكاء

العويل

النداء..

ما كان سيحدثُ هنا

يحدث في مدينةٍ تكبر هناك

تتشكّل بلا سورٍ قديمٍ

بلا جسرٍ «عتيجٍ» بيني وبين ضفتها؛

مدينةٍ بلا توقيت!

وحدي هنا

أدفن في القصيدة «تلويحةً» أخيرة

فتزهر أكفاً نديّةً للعابرين إلى الغياب

عباءة تحت المطر

-وماذا يثير في نفسكَ حين يهطل في فنجانك؟

ما عادت تعنيكَ الأوقاتُ السعيدة عندما ينهمر حادّاً في الظهيرة،

وتخرج أمكَ مسرعةً لتدخلَ الأحذيةَ الباليةَ إلى غرفة الجلوس..

عشرون زوجاً من الأحذية المهترئة بمقاساتٍ مختلفة،

يجمعها الشتاء

ويجمعنا أيضاً..

لم نكن أغنياء، وعلى الرغم من هذا كنّا نحبّ المطر!

* * *

-وماذا يثير في نفسكَ عندما يهطل فوق مظلات المقهى؟

وكانت النساءُ الرقاويات ينشرنَ على حبال الغسيل عباءاتهنّ الحَبَرْ

وكنتُ أسأل: لماذا ينشرن أسودهنّ بفرح؟

وهل يؤلمهنّ أن يبهتَ هذا السوادُ إذا انقطعَ المطر؟

* * *

-وماذا يثير في نفسكَ عندما يهطل على زجاج سيارتك؟

مرّة صنعتُ سفينةً من ورق وغرقتْ في بركة الماء أمام باب بيتنا..

قلتُ: نسيتُ أطواقَ النجاة ومات البحارة.

* * *

-وماذا يثير في نفسكَ عندما تعبر الشارع؟

أفتقد دكاناً صغيراً كان يفرغ كراتين الحلوى، يفتحها، يكدّسها عند المدخل..

وكان يستمع إلى «حكم العدالة»!

* * *

-وماذا يثير في نفسكَ عندما تقابل امرأةً جميلة؟

-الدفءُ غاية

الدفءُ وسيلة

امرأةٌ في الحرب

وامرأةٌ في الحب!

* * *

-وماذا يثير في نفسكَ عندما تعود إلى البيت؟

-أُخرج حذائي القديم

ذلك الذي ما زلتُ أحتفظ به تذكاراً من بلادي

أضعه على الشرفة الرماديّة..

وأنتظر يدها!

ساقٌ مهشّمة

لا ظهرَ لي كي أسندَه على جدارِكِ
لا يدَ لي أضعها على كتفكِ
وأبكي
لا فمَ لي كي أقول لكِ:
- هذي البلاد كسرتْ ساقي، هشّمتها..
لم يبق منّي ما يصلح للحب
ما يكفي لحياةٍ ممكنة!
أنا ظلّ بلا ظهر
مثل غبارٍ عالقٍ في محبرةٍ جافّة..
وغداً عندما تعودين إلى بيتنا
لا تخبري أمّي بما فعلته البلادُ بي،
قولي لها:
-حياتهُ لم تخلُ من أخطاء مطبعية
كان هشاً كأزهار الكرز
غريباً مثل وجه بلا فمٍ
أو جدارٍ بلا ظهر..
فإذا بكتْ سيرةَ غيابنا
ابحثي عن بقعة حِبْرٍ على «زيج» ثوبها
وقلمٍ يصلح أن يكونَ بديلاً

لساقٍ عبرتها بلاد الله

ساقٍ تمشي إليها مهشّمة..

سرقوا وجهي من حقيبة أمي..

وعلى بسطة الوطن

ابتاعه سائح..

في محلٍ لبيع الأنتيك

هناك في بلادٍ بعيدةٍ

صار منفضةً للسجائر!

«السعلوّة»

تحمله امرأةٌ عارية

تمشي على هامش الليل

لا تراها أضواءُ الشاحنات

ولا تُحسُّ بها الحصا!

«سعلوةٌ» خطفته ومضت

رفعتْ ثدييها إلى الأعلى

تركتْ جدائلها عشباً للنهر

أنيابَها على جذوع الصفصاف

استحالتْ امرأةً مثل كلِّ النساء

صارتْ أمّاً لقلبك!

قالوا:

- هي امرأةٌ غرق طفلُها في سطل الماء عندما كانت تُعدّ نفسَها لزوجها، قتلها في نحيبها..

قالوا:

- سحبَها من جديلتها النديّة إلى الفرات، ماتتْ قبل أن تغرق، لكنّ جسدَها لم يطفُ..

وكان هذا باباً لشائعاتٍ كثيرة!

قالوا:

- نسمع نداءَها في الريح وهي تَعولُ في كانون الثاني،

وبكاءً يسقط في النشيج آخر الليل..

قالوا:

- كانت جميلةً، «طولها رمح الرديني وعينها عين الغزال»

قالوا:

-تبحث عن طفلٍ صغيرٍ لا ينام؛ تأخذُه إلى بيتها في قاع النهر..

نمْ يا صغير!

نمتُ..

لكنّ قلبي لا ينام!

«سعلوةٌ» تخرج من النهر

عاريةً في ليل كانون

ثدياها لبنٌ وماء

تحمل قلبي إلى النهر

لا تراها أضواءُ الشاحنات

لا تُحسُّ بأقدامها الحصى

تنظر إلى الأضواء البعيدة

تغمر قلبي بدموعها

تعمّده بالحنين إلى الخرافة

ثمَّ نمضي في الفرات..

قالوا:

- خطفته..

ما عاد يعبر حديقةَ الرِّشيد خفيفاً في ظلال الزيزفون

ما عدنا نسمع صوتَه على الرّصيف يكتب الخطوةَ في ارتجالات الطريق..

ما عدنا نُحسُّ بيده تسرقُ من الشمس مشراقةً للجالسين في «نسيس» الثلج، تخطف من فيء الجديلة عتمتَها اللذيذة لعابرةٍ في عيون العابرين!

ما عدنا نرى ثيابَه على حبل الغسيل

كتبَهُ على رفِّ الخزانة

صورتَه في «جزدان» أمّه ودفتر الحبيبة..

ما عدنا نسمع أصواتَه حين ينهره الصمتُ، فيبكي، ثمَّ يضحكُ، ثمَّ يصرخُ، ثمَّ يترك خيطاً من أنين كالطريق إلى الفرات بين «دَرْباتِ» المدينة..

ثمَّ يخاف فيسكت!

قالوا:

- تَسَعُ الخرافةُ لألف «سُلعوّةٍ»

ولكلّ واحدةٍ بيتٌ في الغياب..

قالوا:

- كالملح في الدَّمع استحالَ مِلحاً للحكاية

ناشفاً في الوقتِ

يابساً في الخرافة

علّق ذكراه في صوت أجراس الحرمل..

مضى معها!

قلبي الذي يعود مع «السُّعلوة» متعباً من الإياب

يصدّقها حين تمسكُ بيده

تعبرُ به خيط الأنين

تومئُ له بالحياة وتمسحُ خطواتِهما بالغياب

قلبي الذي قطَعَ المسافةَ من الخرافة إلى جسدي

من المدينة إلى النهر

من الذاكرة إلى الملح

ذابَ في وجعٍ

وغاب..

لا بيت في الليل أستهدي إليه

لا طريقَ أقطعُهُ وأنا أغني

أتأمّل

أفكّر

أنهي حديثي مع نفسي

أتجاهلُها..

لا طريقَ أطول من موجةٍ إذاعية

أقطعُهُ وأنا أدندن أغنيّةً عراقية..

وكنتُ أتمنى أن أضيع..

لم يحدثْ يوماً أن ضِعتُ بعيداً

أن أخطأتُ الجهة

ومضيتُ بها..

أن أخذني البردُ عندما توقفتُ في العتمة،

ولحسن الحظ أنّني توقفت !

لا طريق طويل أقطعه ..

لا صوتَ يشدّني لاقتفاء النداء فيه

لا بيتَ في الليل أستهدي إليه

لا بابَ لأطرقه

هناك حيث الضوءُ حياةٌ ممكنةٌ

والفرحُ استراحة مسافرٍ،

أو محاربٍ

لا فرق !

ومن دون أن يخرجَ أحدٌ لاستقبالي

أخلع معطفي

وأدخل في الهاوية!

ثقيلاً في المدينة،
خفيفاً في الذاكرة

لا فراغَ في الوقت كي أحشوَه بالملل الجميل،

ذاك الذي يصيب فتاةً ترتدي ثيابَ نومها وتدخلُ في تكرار الأغنيات

أو ذاك الذي يصيبُ غريباً يتحدّث عن حياد المقاهي،

حين تتشابه في ابتسامة النادل وارتفاع الطاولة !

وكنتُ أسأل نفسي :

- هل يكون الملُ غايةَ الوقت عندما يمرّ ثقيلاً في المدينة، خفيفاً في الذاكرة؟

لا فراغَ في الوقت كي أحشوَ صدوعَه بالقصائد

أقفل البابَ ورائي وحيداً..

أنام، أصحو، أقرأ، أكتب، أصدّق، أشكّ، أراقب، أعيد ترتيب الخزانة، أحدِّث موتي، أكسر قوائمَ الطاولة، أطفئ الضوءَ الأصفر..

وفي العتمة

أكتب قصيدةً/سطراً عني

وحيداً..

كثيراً!

أنزوي على نفسي

أعصرني

فتَسيلُ اللغةُ إلى باب جارتي

إلى صخب لحظاتها

تجفّفها بقصائدَ رتيبة

تشفق على صمتي

تدعوني إلى عشائها..

لا فراغَ في الوقت

كي أحدّثها عن رغبتي في شطب قائمة أولوياتي

عن رغبتي في الخروج معاً في نزهةٍ صباحيّة

كي أقترحَ إجابةً عن سؤالها:

-هل سيختلّ توازن العالم إذا غاب شاعرٌ؟

إذا لم تُكتب قصيدة؟

وبابتسامةٍ محايدةٍ

أعتذر عن اللغة السائلة

عن دعوتها المفتوحة إلى الحياة

وأعود إلى موتي..

كرسيّ شاغر

تنمو مثل الأشجار

الأمرُ بهذه البساطة

وكما يحدث في النهاية

تستحيل كرسياً شاغراً

على طاولة رجلٍ

نسي من شدّة وحدته من ينتظر..

أيدٍ محنّطة

كلّما مددتُ يدي إليكَ قطعتها

وفي كلّ مرةٍ تنمو لي يدٌ جديدة..

يقولون:

- الحياةُ في أن ننسى دوماً..

ألّا نلتفتَ إلى الوراء،

حيث تنمو السكاكينُ في الجروح الصغيرة

ألّا نتذكرَ لمعانَ الحديد وهو يجزُّ هشاشتنا..

ولكن:

- لماذا أكدّسُ في رأسي آلافَ الأيدي المحنّطة؟!

بابٌ مشرَعٌ للريح

ماذا لو كان للحديث بابٌ

وخرج الناس يحملون أبوابَهم إلى الشارع؟

بابٌ موصد وآخر موارب..

بابٌ بلا أُكرَة

وآخر بمقبضٍ داخلي

بابٌ بطلاءٍ مقشّر

بابٌ بصدوعٍ متآكلة..

بابٌ أسودُ يحمله صاحبه فوق ظهره

وبابٌ أخضرُ كحقيبة يدها..

وفي الليل يدخل الناس في أبوابهم

يدخلون في الصمت..

وحدك تصِرّ

تهتزّ

ترتجف في صدوعكَ..

وحدك تفتح الباب للريح؛

تتحدّثُ عنك..

تفتح بابكَ للريح

لتغفو..

كوابيس اليقظة

أقطع وردةً لأرى موت الغابة

أفتح باباً لأراقبَ يأسَ المدينة

أمزّق ثوباً لأتحسسَ شيخوخةَ جسدكِ

أكسر صحناً لأتلذذَ باحتضار الجياع

أطفئ الموسيقى لأسمعَ صوتَ المؤذن

أقلب الكرسي لأدخلَ في عقل الطاغية

أبول واقفاً لأشهدَ قتل الطهارةِ

أسدل الستائرَ لأدخّن سيجارة أخيرة

أذهب إلى النوم لأشاهدَ نهاية العالم

(1)

كلَّ يومٍ أسألها:

- هل سينتهي هذا الكابوس؟

تهزّ رأسَها

أفهم أنّها تريدني أن أهدأ

ألا تتدهورَ حالتي أكثر..

تركض إليَّ بالمهدئات والحشيش والنبيذ والأصدقاء

تعدّ لي الطعام وتلاحقني بلقمةٍ أخيرة

منذ فترةٍ لم تعد تسمح لي بمتابعة الأخبار

صارت تأخذني إلى أجنحة الولادة في المستشفيات

إلى بوابات المدارس..

نسير على طول سور الحديقة

نتابع أفلامَ الأنيميشن

وتقرأ سلسلةَ «المكتبة الخضراء»

كلَّ يومٍ أتذكر أنّني أريد أن أسألَها

عن كابوسٍ يلاحقني

أقول لها:

- أريد أن أنام.

لا تسمعني

لا تهزّ رأسها

أصرخ بها:

- أريد أن أنام

لا تتغيّر ملامُحها

تدير ظهري

تأخذني إلى السرير

تمسّدُ شعري

تقبّلني

تهمس بكلامٍ لا أفهمه

تطفئُ الضوءَ وهي تقول كلاماً لا أفهمه

عن امرأةٍ شجاعةٍ

لكنّها متعبةٌ لكثرة ما أطفأت الضوء

وأغلقتِ الباب

ودخلتْ معي في الكابوس!

(2)

أغمض عينيّ، أستلقي على ظهري كسلحفاةٍ مقلوبة، أترك يدي على صدري

ويدي الأخرى تحت ظهري كنورسٍ ميّت..

أراقب أنفاسي وهي تزيحُ عن صدري كومةً من نداءاتٍ وأسئلةٍ يابسة..

تسقط تحت السرير

تتكسّر مع الأصوات التي تتناهى إلى مسمعي

كلُّ شيءٍ خارج جسدي ليس أنا

لا يعنيني تماماً

ومع ذلك فهو يشدّني إليه

يجبرني على التفكير فيه..

الخوفُ يهشّم كل شيء

يستحيل شظايا حادّة

قِطعَ زجاجٍ،

حجارةً مدببةً،

أسناناً منخورة..

لا فكرةَ في رأسي تعلو فوق رغبتي في السّير على الشظايا..

أقاومها كنورسٍ ميتٍ

كسلحفاةٍ مقلوبةٍ على ظهرها!

(3)

لا أنام

ولا أصحو

هذا يعني أنّني لن أتأخرَ في الاستيقاظ

ولن أذهبَ إلى النوم باكراً

هذا يعني أنَّني لست هنا،

حيث كلُّ شيءٍ يخضع لنظّارة الوقت

ما يحدث حقاً

وما يمكن أن يحدث!

هذا يعني أنّني هناك..

ولكن:

- هل هذه هي الحياة؟

أَلَّا تنامَ

وألَّا تصحو

كنظارةٍ طبّيةٍ فوق عينين مغمضتين؟

(4)

أنت تعرف ولا تحُس..

هذا يهوّن الأمرَ كثيراً

تعرف الوقتَ الذي تحتاجه لتقطعَ طريقاً ما

لكنك لا تُحسُّ بأقدامك حين كانت تقطعه

تعرف أنّ غرفةَ الفندق ستزولُ تماماً

عندما تقرر الإدارةُ أن تستبدلَ السريرَ، أو تضيف كرسياً ثالثاً..

لكنّك لا تُحسّ بهذا التغيير!

تعرف أنَّك قد تموت

لكنّك لا تحُسُّ بالتفجع على نفسك

كأنَّكَ شخصٌ غريبٌ عنك!

تعرف أنَّ الحياةَ مثل معلباتٍ منتهية الصلاحية

لا تُحسّ بالخوف إذا ما تناولها أحدٌ أمامك

وهذا لا يعنيكَ أيضاً..

أنتَ تعرف ولا تُحسّ

تعرف أنّ في مكانين هنالك وقتاً مشتركاً

وقتاً يمضي من دون أن يُحسَّ مكانٌ بآخر

مثل جهازي تلفزيون متقابلين

يعرضان فيلمين مختلفين:

فتاةٌ تخلع ثيابها على طرف الأريكة

وشاعرٌ يرفع يده وهو يقرأ قصيدةً عن الحرب

كلاهما يعرف أنّ الآخر على قيد الحياة

ويتذكر..

ولكن:

- هل هذه هي الحياة؟

أن يتذكّرَ أحدُنا الآخر ولا يُحسُّ به؟

(5)

كلُّ من تحبّه يسكنك..

تمسك يده وتدخله إلى عالمك

كلُّ من تكرهه أيضاً

تمسك بيده وتدخله إلى عالمك

في داخلك بشرٌ كثيرون

لا يعرفونك تماماً

وأنت أيضاً لاتعرفهم

يعيشون

يموتون

يتجاهلون وجودك

يبنون معابدَ وحاناتٍ ومقابرَ وسجوناً..

يتزوجون، يلتقون، يتفرّقون، يتجادلون، يتشاجرون طويلاً

وكثيراً ما تستحيل شجاراتهم إلى حروبٍ طويلة..

وحدكَ تطلّ من سقف نفسك

وحيداً

مثل إلهٍ هاربٍ من غبار الأسطورة

مرّ زمنٌ طويلٌ نسي معه

كيف خَلَق هؤلاء البشر، ولماذا!

(6)

نحن ذبابٌ مزعج

نبحثُ عن الدفء والضوء والطعام وكؤوس الشاي

نلتصقُ بالسقف

نتزاوج في أيّ مكان

وتحتَ أيّ ظرف

نحرِّك أقدامَنا بخفّةٍ عندما نعمل

أو نلهو..

ونطوي أجنحتَنا عندما نهدأ

نخاف كثيراً من الأشياء والمخلوقات الكبيرة

ومع ذلك نستمرّ في الحياة

نستمر في اللهو والتزاوج

ولا نكفّ عن إزعاج الآخرين

ولحسن الحظ..

دائماً هنالك موتٌ في النهاية

دائماً هنالك أشياء كبيرة!

(7)

لماذا اخترع الناسُ الستائر؟

ليحجبوا الضوء

لماذا اخترع الناسُ الثياب؟

ليحجبوا الجسد

لماذا اخترع الناسُ الأبواب؟

ليحجبوا تفاصيلهم الخاصة

ثم صار كلُّ شيءٍ طبيعياً

وصحيحاً

وضرورياً..

ثم نسي الناس

لماذا عليهم من حينٍ لآخر

أن يخلعوا ثيابهم

ويرفعوا الستائر

ويفتحوا الأبوابَ للريح والغرباء!

(8)

يشبه الأمر إلى حدّ بعيد القفزَ فوق «النطاطية»

كلما استطعتَ أن تقفزَ بشكلٍ صحيحٍ،

ستقفز عالياً..

يسعدكَ انسجامُكَ التّامُّ وأنت ترتفعُ أعلى كلما لامستَ سطحها

كأنّكَ جئتَ إلى هذه الحياة لتقفزَ فقط

لا يغريك السقوط

الأجنحةُ اللامرئية التي تَنْبُت بدلاً من يديك

لكنّكَ تخاف الوقوعَ كلّما فكرتَ بأنّ رغبةً بسيطةً في القفز أعلى

قد تلوي كاحلكَ

أو ربما تلقيكَ عن سطحها..

لن تموتَ بهذه السهولة

لكنّكَ ستتألم

سيوجعكَ عجزُكَ عن الانسجام التّام

سيوجعكَ تلاشي الأجنحة

ولكن:

لماذا تصرّ الحياةُ على أن تكونَ نطاطيّة؟

لماذا لا يمكن أن نقفزَ دوماً على الرغم من أنّ الفطرة تقول

ذلك؟

(9)

سأزرع شجرةً في مكانٍ من هذا العالم

سأعلق كيساً على سلكٍ شائكٍ..

سأحتفظ بقطعةِ خشبٍ محفورٌ اسمي عليها

سأستمرّ في تدوين الملاحظاتِ على هوامش الكتب

سأحتفظ بالمعطف الذي اشتريته منذ عشر سنوات

وكلّفني نصفَ راتبي

لم يعد مناسباً،

صار ضيقاً

وقديماً

وتذكاراً رديئاً..

سأجمع تذاكرَ السّفر في القطارات والطائرات والحافلات..

سأتذكر دوماً ملمسَ الجدار القريب مني

يذكّرني بخدّ أمّي

أمّي التي كانت تقول:

- «كُلْ شَيْ أحسن من بني آدم!»

(10)

أريد أن أتخلصَ من معرفتي بأخطائي

المعرفة عدو الحماقات والأخطاء واللذة والمجانين والعشاق

المعرفة التي تنخر رأسَك مثل سكينٍ تحفر عميقاً في لِحاء الشجر

المعرفة التي تشبه ألف مطرقةٍ، تدقّ ألفَ مسمارٍ في رأسك..

في اللحظة ذاتها

وعلى الجدار ذاتهِ

المعرفة التي تتدخل في النسيان

كما تتدخّل في طريقة إعداد الذاكرة في ليلةٍ ماطرة..

المعرفة التي تحتلّ المسافةَ بينك وبين شعورك

حين يكون لكلّ شعورٍ تفسيرٌ ممكن

ولكلّ تفسيرٍ خرائطُ ذهنية..

المعرفة التي تجعل السببَ قبل النتيجة

المعرفة التي تضيء لك العدم!

الأمر مملّ

ويصيبني بالغثيان

عندما تريدني أن أكون مستعداً دوماً

للتفكير بعجزي عن محو نفسي!

(11)

لو كان للإنسان ألفُ عين،

هل سيرى الحياة على نحوٍ أكبر؟

لو كان للإنسان ألفُ يد

هل سيقاوم رغبتَه في الحصول على كلّ شيء؟

لو كان للإنسان ألفُ قلب

هل سيمتلئ العالم بالحب؟

لو كان للإنسان ألفُ حنجرة

هل سيقضي الوقت في الغناء؟

لو كان للإنسان ألف فمٍ

هل سيقول كلّ ما يخطر في باله؟

لو كان للإنسان ألف قدمٍ

هل سيقطع الدروب كلها؟

ربما سيصير أسرع وهو يركض إلى الهاوية..

(12)

مرّة حلمت أنّني نورس يفرد جناحَيه فوق البحر

مرّة حلمت أنّني سلحفاةٌ تأكل الحسّ ببطءٍ قاتل

مرّة حلمت أنّني ذبابةٌ ملتصقةٌ بسقفٍ عالٍ

مرّة حلمت أنّني أقيمُ في غرفة فندق

أتحسسُ الجدار القريب من سريري

وأرى امرأةً تخرج من التلفاز، تحمل ثيابها وتتقدم نحوي..

كانت يدي قد ارتفعتْ قليلاً

وعلى أطراف الحلم كانت هنالك أريكة!

ستتمنى دوماً أن تنامَ أكثر لتهربَ أبعد..

وعندما ستستيقظ من النوم

سيكون كلّ شيء قد عاد لطبيعته

وسيكون عليك أن تحتملَ الألم من دون أن تعرفَ لماذا..

وأن تتناولها فاسدةً من دون أن تمانعَ أو تعترض..

وأن تواجه كلّ شيءٍ بمعرفتك أنت

وأن تختبر كل شيءٍ بإحساسك الخاص

كلُّ هذا سيحدث معك

سيحدث في حياةٍ لن تتمكنَ من قتلكَ أكثر

لن تتمكنَ من ملاحقتكَ داخل الكابوس

رصاصةٌ تستيقظ في الكابوس

كما يرتدي جنرالٌ متقاعدٌ بذلته

أرتدي الانتظار

ألمّع أزرارَه بمنديل الوحدة

أؤدي التحيةَ للذاكرة

ثمّ أسقط في الهزيمة!

رأسي محشوٌّ بآلافِ القصائد

عن نساءٍ تزوجن من غرباء

وأخرياتٍ هاجرنَ إلى أماكن مجهولة

عن أطفالٍ يركضون بلا هدف

يلعبون في حدائق مهملة

يتسلقون أسواراً لمدرسةٍ بلا طابورٍ وأناشيد..

عن ضَحكٍ لا يكفي

وأحاديث غير مهمّة

وتحياتٍ مدنسةٍ بابتساماتٍ قصيرة...

عن شتاءٍ بلا غيمٍ

وغيمٍ تحت المطر

وفوق ألبومات الصور

عن ذكرياتٍ بعيدة

محايدة

وجميلة

وكأنّها لا تخصني...

عن سرب حمامٍ

ينهدّ دفعةً واحدة

من «سابع سماء»

إلى بركة ماءٍ في أهزوجةٍ مكسورة..

رأسي محشوٌّ بآلاف القصائد

عن رجلٍ يختبئ في صوته

يرتدي كلماتٍ مطفأةً بلا أزرار

ويغطي وجهه بمجازاتٍ سميكةٍ..

عن رجلٍ مشوّه لاينام

يخرج كل ليلةٍ من سبابته

يبحث عن زنادٍ بندقيةٍ نائمةٍ..

عن رصاصةٍ تستيقظ مذعورةً في رأسه!

أشدَّ من اليأس

في حياةٍ أخرى
إذا تحققَ لي أن أكونَ غراباً
سيكون هذا جيّداً
أطوي جناحي على سلك كهربائي
أرقب نافذةً موصدةً في بيتٍ مهجورٍ..
أنصت بصبرٍ لحركاتٍ تتباطأ
لضحكاتٍ تتلاشى في العدم
أتأمل وجوهاً يعلوها الغبار
كصورةٍ نجتْ من الحرب
ولم ينجُ أصحابها..
وكغرابٍ يختار موته
يضرب النافذةَ بصدره
أقوى من الوحدة
أشدّ من اليأس..
مرّة أخرى كي ينجوَ من الموت
مرّة أخيرة كي يدخلَ في الغياب

خطوة عرجاء

أنا فلمٌ قصيرٌ جداً

عن رجلٍ عضّته الحرب

نجا من الموت

ولم ينجُ من تكلفة الهروب!

أنا خيط دمٍ نازفٍ

من قدمٍ تنهب الدرب،

تذرعه بخطوةٍ عرجاء..

إلى الهاوية!

نبض مهزوم

تكْ

تكْ

تكْ

صوت المطر على الخوذة،

المطر الذي يسيل دماً وعشباً..

الخوذة التي هي قلبي

قلبي الملقى في العراء

المنسيّ في بهجة النّصر

الوحيد في سكونٍ مستباح..

انتشلوا نبضَه من جثة جنديّ مهزوم

لم يهربْ

كان يحلم بالإياب..

قلبي الصدى والصدأ!

أجساد ناقصة

باردةً تخرج من ثلاجة الموتى

تسير مع أيدي الجميع

هكذا

ويمتلئ الشارعُ بالأكفّ المثلّجة

تقبض على الرصاص فيتجمّد

تنثر الزمهريرَ فوق قذيفةٍ لم تنفجر

وعرقُها يسيل أمامها

فتبتلّ أقدامُ القتلة!

كانت تسير زرقاءَ قاتمةً

من دون أن تميّزَ اتجاهها

تبحث عن عنقٍ لتخنقَه..

\

ما أقبح الرؤيا!

\

لكنّني كنتُ مع الجميع في ثلاجة الموتى

ننهض في العتمة الجافّة

نتحدث عن سلّمٍ سينزل بعد قليلٍ من السماء

عن الدفء الذي سيغمرنا به النّور

ونقطةٍ مختنِقةٍ في الأرض

عن أيدينا الّتي انشغلت عن وداعنا،
تبحث عن عنقٍ لتخنقَه..
عن أيدينا الّتي لن تتحوّل إلى أجنحةٍ بيضاءَ
عن أجسادنا التي ستصعد ناقصة!

وكان البيت أخي السابع

قذيفةٌ واحدةٌ

كانت كفيلةً بهدم البيت

وتهشيم ذكرياتِ العائلة

وحده ثوبُ أمي على حبل الغسيل

ظلّ يلوّح بكميّه مودِّعاً

(1)

-كان لي ستةُ إخوة

وكان البيتُ أخي السابع!

(2)

-هناك

حيث أقفُ آخر الممر

أرتدي «أڤرولاً» أزرق

وأحمل بيدي شاحنةً بلاستيكية

كانت صفراء بعجلاتٍ سوداء..

كان ورقُ التوت يتدحرج على نهارٍ خريفيّ

يدخل من نوافذ البيت جميعها

ويتكدّس أمامي على طول الممر

كانت هنالك يدٌ تشير لأقفَ ثابتاً

كانت الشمس أغمقَ بقليلٍ من

الغبار الذي يغطي الصورة..

(3)

- تعالْ

اقتربْ

من هذا الصدع في الجدار الخلفي

كنت أراقب نهاية العالم

كنت أشمّ رائحة التراب..

(4)

-لبيتنا بابان خارجيان

وثلاثةُ أبوابٍ تطلّ على حديقة

وستةُ أبوابٍ داخلية للغرف

كلّها مفتوحة دائماً

لم يكنْ هنالك أعداء

كانوا لصوصاً ظرفاء فقط

يخرجون من حكايات أمي عن بلادٍ بعيدة!

(5)

-في الليل
تقف نجمةٌ فوق بيتنا
في الزاوية الحادة التي تتشكّل بين جدارين
الزاوية الميّتة في المرمى
نجمةٌ تشبه هدفاً يبرقُ في عيون صغار الفقراء!

(6)

-كنت أخاف من خزانة أمّي
أخي يؤكّد لي أنّها مليئةٌ بالحيوانات المحنّطة
تتدلّى من جيوب معاطِفها أجسادٌ وثعابين
وتلمع عيونُ الخفافيش في طيّات فساتينها..
دائماً كانت تغلقها
وتعلّق المفتاح على علاقة الثياب العالية..
خزانة أمّي القصّة التي يؤلفها الصغارُ وحدهم
عن عالم الكبار..
وكنت إذا عبرتُ أمامَها سمعتُ أصواتاً مخيفةً
وصراخ أطفالٍ أبرياء..
وكنت أخبر أخي بما سمعت..
كنت أخاف من خزانة أمّي

كَبُرتُ وضحكتُ من خوفي

لكنّني،

لم أتخلص منه!

(7)

-وكنتُ إذا زعلت

دخلتُ في خزانة أبي

وأغلقتُها من الداخل

خزانة أبي

كانت بلا قفلٍ

كومةُ صورٍ وأوراق

ومعاطفُ معلّقةٌ لإلهٍ قديم!

(8)

-كنّا نأكل في المطبخ

نكتب واجباتِنا في المطبخ

نشاهد التلفازَ في المطبخ

تستقبل أمّي ضيوفَها في المطبخ

تجفف الملوخية والزعتر

ترتّب علبَ البهارات

باقات النعناع

أطواق الباميا المجففة..

كنّا نكبر في المطبخ

-هل يعني هذا لك شيئاً؟

الحبّ يعيش في المطابخ الدافئة!

(9)

-المرّة الوحيدة التي تركنا فيها البيت

كانت قبل سنواتٍ طويلة..

ذهبنا إلى البحر

فسحةٌ في العمر

صورٌ لألبوم عائلةٍ فقيرة..

ستةُ أيام لم تتكرر

المرة الوحيدة التي حزن فيها البيت كثيراً

عندما عدت

حدثته عن رحلتنا

كان سعيداً

وهو يتخيل موجةً كبيرةً أوقعتني على الشاطئ!

(10)

-كنّا نتحدّث عن ضرورة عمل تغييراتٍ جذريّة..

كان يستمع إلينا من دون أن يقاطِعَنا

عندما انتهينا من الحديث

صفق الباب

وخرج..

عاد آخر الليل مخموراً

(11)

-عندما وقع أوّل انفجارٍ في حارتنا

تهدّم جزءٌ من سور البيت

مع البرميل الذي سقط على بعد عشرة أمتار

تكسّرت خمسة أشجارٍ

وتصدّعت الجدران الأمامية..

مع السيارة المفخخة

تهدّم الجدار الخلفي

وتهشّم زجاج النوافذ

وتحطّمت الخزانة..

الطائرات الفرنسية كانت أعنف من الأميركية

دمّرت ما بقي واقفاً من البيت

الطائرة الروسية قصفت دائرةً حكوميةً قريبةً من بيتنا..

بيتنا الذي كان قد تهدم تماماً

تهدّم مرةً ثانيةً،

وعلى نحو أعنف!

(12)

- هل سأصادف يوماً ثيابَنا في أسواق البالة؟

التلفاز القديم هل سيعرفني إذا ذهبت يوماً إلى سوق المستعمل؟

هل ستنام رؤوسٌ غريبةٌ على وسائد أمي المشغولة بالتنتنة؟

ماذا سيحدث لبسط الصوف، ألبومات الصور، علب الدواء

صحون الطعام، دفاترنا، شهادات ميلادنا؟

ماذا سيحدث لتفاصيلنا الصغيرة؟

لحكاياتنا المنقوشة على الستائر والشراشف؟

هل سأسمع كأساً يناديني باسمي؟

هل سأجلس معه لنتحدث عمّا حدث لكلينا،

ثم أودّعه وأمضي؟

وآثار أقدامنا..

هل ستعرف أولادنا إذا عادوا إلى البلاد سائحين؟

(13)

-أريد أن أعودَ إلى هناك

أريد أن أشاهدَ بيتَنا المهدَّم

أن أتعلّمَ الطريقة الأفضل للتعامل مع البيوت المهدمة

أريد أن أتحسسَ حجارته

ألمس خشبَ أبوابه المتكسرة

أرى بعيني ما حدث لكلينا

ما يمكن أن يحيلنا إلى النهايات غير السّارة

حين تكون النهاية حدثاً أكبر من الموت

خاتمةً لم تُكلَّفِ الحربَ كثيراً.

وكما كنت أفعل

أقعدُ في المطبخ

أرسم خزانةً وأحد عشر باباً

ومفتاحاً معلقاً على علاقة ثياب أقصر..

في متحف الحرب والذاكرة

- من هذه المرأة؟

- إنَّها أمُّك تمشِّط شعرها، وهذا الرجلُ النائم في الغرفةِ ذاتِها والدك.

- من هذا الرجل؟

- إنّه خالكَ، مات قبل سنتين.

- من هذه المرأة؟

- كنتَ تحبها، تزوجتْ من رجلٍ غريبٍ، قتلا عندما كانا يحاولان الهروب.

- من هذا الطفل؟

- ابنُ أخيك، وُلِد يوم قصفتِ الطائراتُ الفرنسيةُ الرقةَ أوّل مرة.

-من هذه المرأة؟

- لا أعرف بالضبط، ربما تكون ابنةَ عمكَ. كنتُ أراها تجلسَ معك في الشّرفة، تسحبُ من سيجارتِكَ خفيةً، ترتبك هي وتضحكُ أنت.

- هذه كتبي؟

- ما بقي منها.

- وهذا الجدار؟

- كان سوراً يحيط بالحوش.

- ما اسمُ هذا الشارع؟

- شارع الأماسي. كنتَ تقفُ عند زاويته وتنظرُ إلى السماء.

-من هؤلاء الصبية؟

- تلاميذُك، صاروا رجالاً، حملوا الأسلحةَ ومضوا إلى الجبهات.

- هل تعرف طريق العودة إلى بيتنا؟

-من هناك، عند آخر الشارع..

- أنت تعرفني؟

- نعم.

- لكنّني لا أعرفك!

- كنت يوماً أنتَ، لكنني سقطتُ من ذاكرتكَ وعدت إلى البيت.

- أنت لا تشبهني.

-كبرتُ أنا في الحرب هنا، كما كبرتَ أنتَ في المنفى هناك.

أوطان بديلة

سَفَران في دمي

الإيابُ هو الرجوع

وليلُ المحطات لا ينام...

ضوءٌ أصفرُ في المقدّمة

يلوح في عتمة المقصورات

وصفيرٌ يمزج الريحَ بالأحمر القاتم

شعبٌ يركبُ دمي

والحقائبُ في صدري تتخثّر!

(1)

أريدُ وطناً بلا أسوارٍ عالية ..

أتسلّق رعبَه بخفة قطّ

أتعثّر

أسقط

أنهض ملوّحاً بذيلي

أضيع في الزحام

في شارعٍ من هذا العالم ..

هناك حيث الرقص افتراضٌ تقترحُه الموسيقى والملل..

هناك حيث الوقوعُ في الحب ممكنٌ دائماً،

دون أن تشقيَك الذاكرة!

أريد وطناً أنساه

لا أتذكره

لا يعنيه فراري ...

لا يرسل القططَ السوداءَ ورائي

وطناً يغيب في البعيد،

عرجاً في قدمي اليسرى

وشتيمةً عابرة!

(2)

هل جرّبتَ أن تبنيَ بيتاً من المكعبات في الظلام؟

تمدّ يدكَ، تتحسّس شكلَ المكعّب، تمرر إصبعك لتعدّ الفراغات

أربعة

ستة

ثمانية..

وتبني!

لا يهمك لون المكعّب

كنت تتمناه بجدرانٍ خضراَء وسقفٍ أحمرَ ونوافذَ صفراء..

نعم، ومدخنة زرقاء!

لكنّك تتخلى عن ترف التناسق وترضى بفراغاتٍ

اسمها

«ربّما في وقت لاحق»

هل جرّبتَ أن تفقدَ صبرك؟

تحبس أنفاسكَ وأنت تضع مكعباً لتمسكَ السقف

ينهارُ، تتنهّد، تبكي، تفقد صبرك، تحاول مرة ثانية، هكذا إلى أن تنتهي،

تنتهي من بناء البيت..

هل تراه؟

يشبه ثوبَ الفتاة اليتيمة في الحكاية، أليس كذلك؟

هل ستنام في فراشك؟

هل سيكفيك حساء المكعبات؟

هل سينتظرك الصيف أبو الفقراء؟

وفي الظلام تتكاثر المكعبات..

وفي الظلام بردٌ لا يصبر عليك

لا يحتمل خوفَكَ من الانهيار

دفئاً

دفئاً

دفئاً

تهذي:

- مدخنةٌ زرقاء!

(3)

نحن البيت سنهاجر

سنحمل جدرانَنا، نوافذَنا الموصدة، مفاتيحَ أبوابنا، أثاثنا المهترئ، غبارَ الزوايا المهمَلة، أُصصَ الزهور، أكياسَ المؤونة، تفاصيلَنا الصغيرة، ملحَ أحاديثنا في الظهيرة، زقزقة العصافير على حبل الغسيل، شجاراتِنا المضحكة..

نحن البيت سنهاجر!

وعندما نصل إلى أرضٍ بعيدة

سنرتّبنا جيّداً

سنتفقدّنا

ما لحق بنا من أضرارٍ طفيفة..

سنستدعي عاملاً

وسنبتسم في وجهه وهو يغيّر أقفالنا!

(4)

كان عليّ أن أقف طويلاً في طوابير السفارات

أن أقدِّمَ طلباً للهجرة وأملأ الاستمارةَ ذاتَها في كلّ مرة

أن أقفَ أمام خرائط بلادٍ تؤمن بالرقص والتسكع..

أبحث عن وطنٍ بديلٍ، أعني مكاناً بديلاً يقبل أحلامي كما هي من دون أن يتدخلَ المخرج بزاوية الرؤية، ومن دون أن يَقلِبَ سريرَنا إلى مقهى بحري واشتباكَ جسدينا إلى ابتسامةٍ مباشرة..

مكاناً بلا رقيبٍ يصادر أحلامي

يمزق المشاهد الممنوعة، كأن أجلس خلفك ألمّ شعرك بيدي، أتمتم في سواده تعاويذَ ملوّنة، أجدله كما يردّد جنديّ مهزومٌ نشيدَ بلادِه الوطني..

كان عليّ أن أبحثَ عن طريقةٍ غير شرعيةٍ لحياةٍ مشروعة.

وكنت سأمزّق جواز سفري بامتنانٍ شديدٍ لأيّ موظفٍ سيسألني:

- لماذا؟

سأفعل ما يجب على أيّ مواطن في هذا الوطن العريض أن يفعله،

أن يُخليَ مقعدَه لطاغيةٍ صغير، أو رجلِ أمنٍ، أو كلبِ حراسة..

كان عليّ أن أقف طويلاً في الطابور،

لكنّني مثل كلّ الواقفين معي،
أجعل ظلي مقعداً لذاكرتي..
وأدخل مهزوماً في سؤال الموظف:
- لماذا؟
أردد نشيدنا الوطني

(5)

كنتُ هناك.

أُعِدّ الحقائبَ للمحطات

أرسم خطوطاً متعرجةً على خريطة هذا العالم..

كنت هناك قبل غصَّةِ التوديع

قبل الأكفّ الملوّحة

ووصايا الآباء

قبل ما ستقوله وجوهُ الأصدقاء

وما ستمتنع امرأةٌ أحبّها عن قوله

وكان عليّ أن أصدّق كلّ ما سيحدث،

عندما تسقط حقيبتي على رصيفٍ في بلادٍ بعيدة.

كنتُ هناك

في جهةٍ من هذا العالم

أتحدّث عن الحب الذي يكسر عينَ القسوة

والماءَ الذي يكفي لتنموَ ضفائرُ الصغيرات

والشمسَ التي تشرق من عيون العشاق

وكانت الحياة

دراجةً هوائيةً تجري في زقاق!

كنتُ هناك

قبل الحرب التي أخذتْ كلَّ شيء

هشمتْ أفكاري عن الله والوطن والنساء

جعلتْ من قلبي ذئاباً تعوي وهي تلعق جراحها

كسرتْ عيني كلما مرّ الحب هنا..

وزفرتُ كلّ الهواء من جسدي

كما تلفظُ الأسماك أنفاسَها في وجوه الصيادين

بعيونٍ مفتوحةٍ

وأفواهٍ مشرعةٍ على الفراغ..

كنت هناك

قبل أن تنتشلني يدٌ غريبةٌ وتضعني في سلّة الغياب..

كيف انتهت الرحلة قبل أن أفهم المسافة؟

ليس مهماً

ماذا تفعل امرأة لم يبدأ انتظارها في غيابي؟

(6)

هل جرّبت أن تفتش حقيبة رجلٍ هاربٍ من الحرب؟

هل تساءلت عن حمولةٍ زائدةٍ لا تفسير لها،

مشبكِ شَعْرٍ لامرأة مثلاً؟

هل تعرف مامعنى أن نُهرّبَ الحب؟

(7)

ملوّثٌ مثل حقيبةٍ ملطخةٍ بالوحل

قلبي الذي لايملك أوراقاً ثبوتية،

مثلك تماماً

بلا وطن أو أختامٍ رسمية..

يقف في طوابير لا تنتهي

يتحدثون فيها عن الخبز والحرية والكلاب..

مثلك تماماً

موجوعٌ وغاضبٌ ووحيد..

وهذي الحياة

حصّةُ المحظوظين وكتبِ الطّاقة الإيجابية وسباقِ التتابع

لم نكن سيئينَ

لم نكن صالحَين

وكنّا ننتظر الفرصة لننجو

ليس مهماً من سينجو

أنا

أو أنت

أو كلانا

هل تحبين الله؟

أعني، هل ما زلت تؤمنين بالعدالة والحرية؟

أنا لا أؤمن بالإنسان كما تؤمنين

ما عاد يعنيني عالمٌ يليق بالسفلة والبسطاء والكلاب..

مثلك تماماً

لم نكن نملك رفاهيةَ اختيار نهايةٍ لائقةٍ بالحب،

أو بفكرتنا عنه!

لم نكن أشقياء

لم نكن سعداء

كنا رجلاً وامرأة

والوطن ثالثهما،

ينبح على طول الشريط الحدودي..

كنا عاشقين يبحثان عن الخلاص

أنا

أو أنت

أو كلانا

مثلك تماماً

ملوّثٌ بأفكارٍ غريبةٍ عن الحبّ والله والإنسان

مثل حقيبةٍ لم تنجُ من اليأس

قلبي الذي ما زال هناك

ملقى تحت سياجٍ من أسلاكٍ شائكة..

قلبي الذي ما زال ينتظر نهايةً أفضل

عن عاشقين يبحثان عن الخلاص

هو

أو هي!

هم يؤكدون أنّ هذا اسمي

وهذه صورتي

يقربون جواز السفر مني

انظر: إنّه أنت!

أهزّ رأسي

فتنهار مدينةٌ تقف على ذاكرتي

وتسيل من اسمي دماءٌ وطوابير!

حرب ليست كالحرب

أريد أن أسمعَ هديرَ ناقلاتِ الجنود تعود بهم

من الجبهات إلى عناق حبيباتهم

أريد أن أرى الأطفال

يصعدون على ظهر الدبابة

يضحكون للشمس التي تلمع على فوّهتها

أريد أن أرى العصافيرَ تتقافز على سطوح بيوتنا المهدّمة

تحمل بمناقيرها العشبَ اليابس

تبني عند نوافذنا أعشاشَها

أريد أن يخرجَ الناس من رطوبة الملاجئ وخيال الشمع الرخيص

إلى شوارع الصخب ونداء الباعة المتجولين

إلى مصافحةٍ عجلى

والتفاتة!

أريد أن تصبحَ الخوذةُ أصيص وردٍ

وزناد البندقية مزلاجاً لبابٍ جديد

وصوت الرصاص ضحكاً متواصلاً مع الأصدقاء

أو شجاراً لذيذاً في عشاء العائلة!

أريدُ عدواً واضحاً يصلح للشتم والتشفّي

وجنوداً نهلل لعودتهم

مهزومين أو منتصرين

وشهداء لا ضحايا

ونشيداً

ونصباً تذكاريّاً..

أريد مكاناً في صدر الوطن أعلّق عليه

صورة تذكارية لعائلة لم تنجُ من الموت

وأترك للحرب مهمةَ تعليق أوسمة الشّرف على صدر الطّاغية.

أريدُ حرباً تشبه الحرب

وعدواً هو العدو، بلا قناعٍ من طين هذي الأرض

وقصيدةً أكتبها في مديح المقاتل

لا في هجاء البندقية!

أريدُ أن أكتبَ العشب،

العشب الذي سينبت على حديد المدافع!

ليس آخرها النصرُ،
ليس أوّلها الهزيمة

ستنتهي الحرب

في صباحٍ لا يختلف عليه اثنان

ستواصل الأعشاب نموَّها تحت الركام

وستطير العصافير أمام عيون القطط غير آبهةٍ بما حدث

وستشرق الشمس إذا لم تكن السماء غائمة،

أو ستشرق في اليوم التالي..

ليس هذا مهماً

نحن نعرف أن لا شيءَ سيتغير

أعني، ربما سنعرف هذا لاحقاً

وأنّ انتهاءَ الحرب لا يعني بداية جديدة!

ستنتهي الحرب

وسيخرج الناس إلى الشوارع

وفي الوقت الذي تجد فيه يدٌ مكنسةً تثير الغبار

ستجد يدٌ أخرى قميصاً مهترئاً،

تلمّع به ما بقي من أثاث البيت في صور العائلة

سيكون هنالك أطفالٌ يفتشون بمرجٍ عن فوارغ الرصاص

وعمّا يصلح أن يكون بندقية!

وكما سيكون هنالك نساءٌ ينظفن بيوتهن بصمت

سيكون هنالك رجالٌ يدخنون ويتحدثون بصوتٍ عالٍ

عمّا يجب فعله!

ستنتهي الحرب

وسيكون هنالك صمتٌ طويلٌ

تقطعه لعناتٌ متقطعة

وكثيفة

وسننصت جيّداً لصرير الأبواب كلّما فُتِحَتْ

الأبوابِ التي صمدت مصادفةً

وسنضحك دونما سبب

وسنبكي لأسبابٍ كثيرة

ليس آخرَها النصرُ

وليس أوّلها الهزيمة!

ستنتهي الحرب

وسيكون الليلُ قاسياً أيضاً

عندما لا يكون هنالك متسعٌ للحديث عن حياةٍ قادمة

وعندما لا تجد الأم أغطيةً تكفي للجميع

أو زجاجةَ حليبٍ مُعقّمة..

عندما ينظر الأبُ إلى باب البيت

ويفكر في الأشجار التي أهدر تحت ظلالها انتظارات كثيرة!

ستنتهي الحرب

وسنجد حانةً تقّدم النبيذ وسحابة من دخان السجائر
وتلفازاً صامتاً يقدم نشرة مفصّلة للأخبار
وشجاراً عند بابها لا نلتفت إليه
وامرأةً بساقٍ واحدة ومكياجٍ رخيص
تمضغ العلك،
ثمَّ تبصقُه في وجه بائع اليانصيب
سنشرب كثيراً تحت ضوءٍ أصفر
وأسلاكٍ تتدلى من السقف كمشانق صغيرة
وسنضرب بأكفّنا على الطاولة عندما ترتفع أصواتنا
ويستبدّ بنا الجدال حول تعريف ما حدث!
ستنتهي الحرب من دون أن نعرفَ كيف ولماذا..
نحرق الأسئلة مع خشب الأسِرَّة في تنك الزيت؛
لنتدفأ في زوايا الشوارع
لنضيء مساحاتٍ ضيقةً من وجوهنا المتعبة..
وعندما يتناهى إلى مسامعنا صوتُ بكاء طفل
وضحكةُ عاهرة
سنضحك هذه المرة لسببٍ واضحٍ،
وسنبكي بعدها لأسبابٍ كثيرة
ليس آخرَها النصرُ.. وليس أوَّلها الهزيمة

قفزةٌ إلى الأعلى

أريد أن أعيش، ألا أترك شيئاً أتمناه لحياةٍ أخرى. لا أريد أن أنتظر. يكفيني نصف الوقت إذا كان نصف هذا العمر انتظارات مريرة. يكفيني أن أخلع حذائي وأقف على طرف نافذةٍ في الطابق الثامن والثلاثين، في المسافة التي تكفي لقدمين يجربان لذّة القفز إلى الأعلى.

أريدُ أن أعيش بسعادة من لايملك شيئاً يخسره، ومع ذلك فهو يملك حقّه بالحياة كما يريد.

أريد أن أعيش، ألا أترك شيئاً أملكه لغيري، بأنانية طفلٍ لايقبل التنازل عن لعبته لطفلٍ آخر، أن أحمل ما يعنيني وأنزوي به، ألا أفكر فيما سأخسره إذا قررتُ أن ألغي طائرةٍ ستعود إلى دمشق لأكمل سيجارتي وأنا أتحدث مع امرأةٍ عن تعب الحياة مع فارق التوقيت..

أريد أن أعيش عمري كاملاً، أن أستلمه سلفاً، رزمة أيامٍ كثيرة، أوقّع في المربع المقابل لاسمي في سجلّات الحياة.

سأدفع ثمن كلّ ما لا أريده من «حُرِّ أيامي» أنفقه على ملذاتي الشخصية، وسأشتري أوقاتاً كثيرة لي، لحظاتٍ سعيدة وثمينة أقضيها كما أحب، بما يعنيني خاصّاً وخالصاً.

وكما يحدث في النهاية، عندما لا يبقى من أيّامي سوى يومٍ واحدٍ، سأخلع حذائي، أدسّ به ما تبقى من «فراطة» الوقت، وأجرب لذة القفز عالياً من طرف النافذة!

زوربا السوري

«الإيمان هو كلّ شيء، فإن كان معك قطعة من بابٍ قديم فتصبح حجاباً مقدّساً، وإن لم يكن لديك هذا الإيمان، فإنّ الصليب المقدّس كله سيتحول لبابٍ خشبيّ قديم»

نيكوس- زوربا اليوناني

* * *

-الحياةُ تقابل الموت

الألمُ نقيض النسيان

السعادةُ في وجه الخوف

الحريةُ أولاً

والوحدةُ بعد ذلك..

أن تكونَ الليلةَ حرّاً

ووحيداً

أن تعدَّ النساء اللائي عرفتهنّ

تعبر الوقتَ بما تَشَكَّلَ في ربيعهنّ من دربٍ

يفضي إلى اللذة!

* * *

-الحرية أولاً

والوحدة بعد ذلك..

أن تغلق بابَ بيتك على نفسك

تفكّك المقدّس كما تفك أزرار قميصك

تلقيه إلى الهراء!

تخلع الوطن كما تخلع حذاءك

تفتح للشهوة نافذةً وتقف عاري الصدرِ..

تلفّك العتمة

تنفرط خيالاتُ جسدك

تتلوّى أشباحك

تهرب من قدميك إلى الجدران

تنسحب خرساء إلى هوامشك..

أنت وحدكَ الآن!

وحدك الذي يعود إليك بالموسيقى!

* * *

-الرقصُ مقابل الألم

تقف فاتحاً ذراعيك إلى أقصاهما

كأنّ الدنيا صحتْ من غيبوبتها وعادتْ إليك

افتحهما أكثر..

كنْ خشبَ الصليب ولا تؤمن بما علّقته البلاد عليك

واحلمْ بطفولتك بين إخوتك في الغابة

كنْ الصليبَ إذا أردت

ولا تكن يهوذا

ولا تكن المخلص..

واصرخ موسيقى!

* * *

-خطوةٌ إلى اليمين

عدْ من الجنّة إلى ذاتك

واذهب إلى النار

ارجع من حيث أوشكت أن تكونه في خطوة معاكسة!

قفْ لحظةً في مكانك

وقل هي الحريّة في قطع المسافة بين الله والشيطان

قل هي الحريّة في ألا أختار طريقاً يفضي إلّا إلى الرقص،

وأعِدْ الكرَّةَ!

* * *

-بلادك تخلت عنك

لم تترك لك جبهة لتقف فيها

فقف بالرقص

قف حاملاً قلبك في فمكَ

واترك يديك مروحتين تحركان السكون حولك...

قف بالرقص مؤمناً بالحريّة

قف بالرقص مؤمناً بجسدك

قف واترك قلبَك يصغي إلى ارتعاشةٍ لذيذةٍ على شفتيك!

واصرخ موسيقى!

-إلى الأمام

من حيث أتقنتَ خلاصك

خطوة بقدمك اليمنى

إذا استطعت أن تتخلصَ من خوفك فأنت حرٌّ؛

أنت حرّ إذا تخلصت من أي شيء

حرّ إذا عشت ترقص عمراً كاملاً

حرّ إذا متّ بعد ذلك

والحرية في ألا تختار!

* * *

-اقفز إلى الأمام

ارفع قدمك اليمنى

وانفض ماعلق عليها

غبار الوقتِ، ثرثرة الأصدقاء، نذور الأمّهات، وصايا الآباء...

انفض يأسَك من البلاد

ومن عليها!

وارجع من حيث أوشكتَ أن تكونها

وكن أنتَ

أتقن إيابكَ إلى نفسكَ

أعدِ الكرّة

واصرخ موسيقى!

* * *

-أنتَ تجهل الآن أكثر مما تعرف

تضيع الأسماء التي حفظتها

تنهار العلاقة بين الماء والكأس

بين الطريق والمسافر

بين البلاد وأربابها

بين الحريّة والوحدة

ترنّح..

ترجّح بين الدّال والمدلول

انتفض

وارجع من حيث أوشكت أن تكونهم

أتقن إيابكَ إلى نفسك

هكذا إلى أن ترتفع عن الأرض بإرادتكَ

وعُدْ إلى نفسكَ حرّاً

واصرخ موسيقى!

* * *

-انحناؤك إلى الأرض فكرة

كما يعود الكلّ إلى الجزء

يتماهى به

أنت الآن جسدك

فلا تخشَ الكلّ

كن أجزاءً

وتشظَّ

انحنِ

واجعل يدكَ طريقاً لامرأة تؤمن بالرقص

تخلَّ عن خجلك الطفولي

انهضْ بها

تماسك أمام خوفها عليكَ من نفسك،

وقل:

- من أنا دون جسدي؟!

ثم اصرخ موسيقى!

* * *

-الحياة تقابل الموت

الألم نقيض النسيان

السعادة في وجه الخوف

الحرّية أولاً

والليلة لامرأةٍ تؤمن بجسدكَ

والوحدة بعد ذلك..

المغيرة الهويدي:

شاعر وناقد من سوريا. من مواليد 1979، حاصل على ماجستير في النقد الأدبي الحديث، يكتب في عدد من الدوريات والمواقع الإلكترونية العربية.

صدرت له مجموعة شعرية بعنوان «الحب لا يغادر البلاد».